

صورة الآخر اليهودي في الكتب المدرسية المغربية للتاريخ بالمرحلة الثانوية الإعدادية وتمثلات عينة من الأساتذة

عبد الإله حميد

كلية علوم التربية

جامعة محمد الخامس - الرباط - المغرب

مقدمة

تعدّ دراسات الصورة من الدراسات الجديدة نسبياً، والتي أصبحت مرتبطة بتخصص معرفي جديد يسمى «الصورولوجيا». وقد ازداد الاهتمام بهذا التخصص بعد أحداث 11 سبتمبر، مما أفرز دراسات عميقة تهتم بدراسة صورة الآخر في الآداب الوطنية المختلفة. ويستعمل مصطلح الصورة «Image» في كثير من مجالات المعرفة الإنسانية، بمفاهيم خاصة ومحددة. «فقد يستعمل في الدراسات اللغوية، والدراسات البلاغية والفنية، والدراسات المقارنة كذلك، ويتحدد معناه في بحوث الأدب المقارن، بتمثيل صور الشعب وما تتضمنه من أنماط بشرية مختلفة وأحكام مسبقة، وإشارات وطرائف وآراء ومشاهدات حول تلك الشعوب، وبشكل عام كل صورة «ترتبط بوعي معين وكذا بـ «أنا» في علاقتها بـ «الآخر» وبالـ «هنا» في علاقتها بالـ «هناك»، وتصبح الصورة من ثم نتيجةً لبعدها بين واقعين ثقافيين متميزين بدرجات مختلفة، كما تمثل الصورة واقعاً ثقافياً أجنبياً يكشف عبره الفرد أو الجماعة المكونة له الفضاء الأيديولوجي الذي يتموضع داخله.

يتناول موضوع هذا المقال إذا «صورة الآخر من خلال تحليل بعض الكتب المدرسية المغربية من جهة وتمثلات أساتذة، من جهة ثانية». وذلك من خلال اعتماد تقنيتين: الأولى تحليل المضمون وتخص تحليل الكتب المدرسية، أما التقنية الثانية فهي الاستبيان وقد تم اعتمادها في رصد تمثلات الأساتذة والمتعلمين بالمرحلة الثانوية الإعدادية، ويندرج هذا المقال ضمن إشكالية عامة مرتبطة بطبيعة صورة الآخر اليهودي في الخطاب التربوي المغربي، والكتب المدرسية الخاصة بالتاريخ بشكل خاص، باعتبارها من الدعامات الأساسية الحاملة لمضامين تعبر عن صورة معينة اتجاه الآخر في تجلياته المختلفة، اعتماداً على مرجعيات تمتع من الثقافة المرجعية وكذا المنطلقات التربوية والبيداغوجية، ومن هنا نتساءل عن طبيعة الصورة التي تتضمنها كتب مادة التاريخ بخصوص الآخر اليهودي. ويمكننا التعبير عن الإشكالية التي نحاول معالجتها من خلال الأسئلة التالية:

- ما طبيعة الصورة التي تقدمها عينة من كتب التاريخ بالمرحلة الإعدادية اتجاه الآخر اليهودي؟
- وما تمثلات الأساتذة اتجاه هذا الآخر اليهودي؟

1. الإطار النظري والمفاهيمي

سبقت الإشارة إلى ارتباط مفهوم الصورة بمجال معرفي حديث نسبياً هو «الصورولوجيا» ومدى ارتباطها بمحددات مختلفة، منها الوعي، والأنا، والآخر. ومن أجل تدقيق دلالة المفهوم نشير إلى أن الصورة مرتبطة أيضاً بالتمثلات الذهنية التي تتشكل لدى الفرد أو الجماعة بخصوص مجموعة من الأشياء أو الأمكنة أو العلاقات الاجتماعية، وقد برز الاهتمام بموضوع الصورة والتمثل، في البداية في الدراسات البسيكو-سوسولوجيا، وبشكل أخص مع الأبحاث التي قام بها مجموعة من الباحثين، وعلى رأسهم Moscovici في 1961، و Jodelet في 1989، و Abric في 1987، و Doise في 1992.

وما دام مفهوم الصورة ذو علاقة بمفهوم التمثل الاجتماعي فلا بد من الإشارة إلى بعض الاتجاهات التي عرفت هذا المفهوم وسلطت البحث تجاه عناصره وخصائصه العامة. ونكتفي في هذا الصدد بالتعريفات التي قدمها كل من ميسكوفيشي Moscovici وأبريك Abric.

ف Moscovici عرف التمثل الاجتماعي باعتباره «تنظيماً نفسياً ونموذجاً من المعارف الخاصة، وسيرورة من العلاقات بين المفهوم والإدراك»¹.

أما Abric فقد عرف مفهوم التمثلات على أنها «نتاج وسيرورة نشاط ذهني بواسطة يعيد فرد أو جماعة ما تشكيل الواقع الذي يعيش فيه وإضفاء دلالات ومعاني خاصة به»² وميز Abric في تعريفه للمفهوم بين خاصيتين مميزتين للتمثلات الاجتماعية وهما «الامتدادية» (أي أن التمثلات تكون مشتركة بين كل أفراد الجماعة) و «الجمعية» (التمثلات الاجتماعية نتاج لتفاعلات داخل الجماعة).

و يقترح Abric نظرية النواة المركزية والتي تفيد بأن «التمثلات الاجتماعية هي نسق منظم من المعلومات والمعتقدات والآراء والمواقف، تشكل هذه المجموعة منظومة سوسيو معرفية خاصة مكونة بدورها من منظومتين تؤثر الواحدة منها في الأخرى : منظومة مركزية (نواة مركزية) ومنظومة هامشية». تجد هذه المنظومة المركزية أصلها وجذورها في القيم التي تتجاوز إطار الموضوع، ويولي Abric في نفس الوقت أهمية للعناصر الهامشية، إذ إنها تسهم في تكييف وحماية التمثل.³

ومن هنا وجب الانتباه إلى العلاقات المركبة بين مفهوم الصورة والتمثل والاتجاه، وغيرها من العناصر التي تؤثر في تشكيل صورة معينة، وتحديد السياقات الزمانية والمكانية التي تتشكل فيها الصور، وصولاً لتقويم مدى انسجام تلك الصور والتمثلات مع المنطلقات المرجعية للنظم التربوية وكذا الرهانات المنتظرة من الفعل التربوي.

2. صورة اليهود في كتب مادة التاريخ بالمرحلة الثانوية الإعدادية:

وقع الاقتصار في هذه الدراسة على الآخر اليهودي بالنظر إلى كثافة العلاقات التاريخية التي جمعت الأنا المسلمة والمغربية مع هذا الآخر خاصة بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة على عهد النبي، وبالرغم من أوجه الاختلاف الكثيرة التي تميزه عن الأنا المسلمة، فإن مناطق التلاقح الديني والثقافي بارزة بقوة، ومنها الوحدة بين الأنا والآخر اليهودي في المنطلقات العقدية على اعتبار انتماء اليهودية والاسلام إلى أصل توحيدي هو الديانة الابراهيمية، وما يقتضيه ذلك من ضرورة التعارف والاتفاق، كما فرض التساكن والتجاور بين الأقليات اليهودية والمسلمة سواء في شبه الجزيرة العربية أو دول المغرب الكبير بلورة علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية، كانت مؤطرة بضوابط دينية مثل أحكام أهل الذمة، أو عرفية تستند لمقتضيات قبلية. وعموما فاستنادا إلى واقع التجربة التاريخية تراوحت علاقات الأنا المسلمة مع الآخر اليهودي بين الصراع والنزاع من جهة والتعايش والتساكن من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر، فقد اعتمدنا في رصد صورة هذا الآخر على عينة من الكتب الخاصة بالاجتماعيات بالمرحلة الثانوية الإعدادية، وتوجه تحليلنا بشكل أساسي نحو تحليل بعض النصوص التي تتضمن إشارات حول الآخر اليهودي في مادة التاريخ دون غيرها من المواد الأخرى المشكلة للمادة وهي الجغرافيا والتربية على المواطنة.

وقع اختيارنا على كتابين مدرسين وهما في رحاب الاجتماعيات والجديد في الاجتماعيات، ويعزى اختيارها إلى تضمنهما إشارات تسعف على رسم صورة متكاملة نسبيا اتجاه الآخر موضوع الدراسة، مقارنة بالكتب المدرسية الأخرى المقررة لنفس المستوى التعليمي. وتمّ التوسل بتقنية تحليل المضمون في استخراج وتصنيف المادة الخاصة باليهود، في هذه الكتب المدرسية، ومحاولة تنظيمها بشكل نسقي يضمن رسم طبيعة الصورة ومرجعياتها ومستوى توازنها من الناحية الكمية والنوعية.

وقبل الانتقال إلى عرض الصورة المضمنة في الكتب المدرسية لا بد من الإشارة إلى بعض المرجعيات التربوية التي تشكل إطارا ناظما للكتب المدرسية عامة وكتب التاريخ بشكل خاص، والقصد من ذلك ما يتضمنه الميثاق الوطني للتربية والتكوين وكذا التوجيهات التربوية باعتبارهما

خارطة طريق توجه الأهداف والكفايات والوظائف الاجتماعية والفكرية التي توظف درس التاريخ بهذه المرحلة التعليمية المهمة في البناء الفكري والاجتماعي للمتعلم .

1. قراءة في الميثاق الوطني للتربية والتكوين والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة الاجتماعيات.

سطر «الميثاق الوطني للتربية والتكوين» مجموعة من المرتكزات و المبادئ الأساسية التي تسعف في رصد تمثل الوثيقة للأنا المغربية من جهة، وعلاقتها بالآخر من جهة أخرى. ومن هذه المرجعيات نذكر تنصيب الوثيقة على قيم العقيدة الإسلامية، فالتوجيهات والبرامج تتوجه للتلميذ المغربي على أنه مسلم أولا وقبل كل شيء» ويعتبر الدين الإسلامي السمح شريعة المملكة وعقيدتها الراسخة، فعلى التعليم الأساسي أن يكفل استمرارها و فاعليتها و تمثل الأفراد والجماعات لمبادئها وتعاليمها. إضافة إلى قيم الهوية الحضارية و مبادئها الأخلاقية والثقافية، و قيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية. و انسجاما مع هذه القيم، يخضع نظام التربية و التكوين للحاجات المتجددة للمجتمع المغربي على المستوى الاقتصادي و الاجتماعي والثقافي، و يخضع أيضا للحاجات الشخصية الدينية والروحية للمتعلمين.⁴

تمكن هذه المنطلقات من رسم تصور هذه الوثيقة للأنا و علاقته بالآخر، فهي إذا تشير إلى ارتباط النظام التربوي بمبادئ الهوية الحضارية للأنا المغربية و تعلقها بالإسلام و مبادئه العامة و فلسفته الأخلاقية، و طبيعة المواقف و الصور التي كونها اتجاه الأنا و الآخر في نفس الوقت، وهي فلسفة تؤكد بشكل عام على أفضلية الإسلام و المسلمين، و تربط علاقات التعارف و التواصل مع الآخر بمستويات تختلف حسب طبيعة هذا الآخر أو ذاك. و يمكننا في هذا الإطار الإشارة إلى الموقف من النصارى مقارنة باليهود، أو أهل الكتاب عامة مقارنة بغير الكتابيين.

أما إذا رجعنا إلى ما تتضمنه وثيقة التوجيهات التربوية الخاصة بتدريس المادة بالمرحلة الثانوية الإعدادية، فنجدها تشير في سياق حديثها عن الوظائف الخاصة بالتاريخ إلى أنه يستمد « وظيفته المجتمعية من مساهمته، مع العلوم الاجتماعية الأخرى في تكوين إنسان يفهم مجتمعه المحلي و الوطني والإقليمي والدولي، و يتموضع فيه، حتى يصبح فيه مشاركا و فاعلا. فالتاريخ يسهم في التكوين الشخصي للمتعلم بتلقيه ذاكرة جماعية تتسع من المجموعة المحلية إلى الأمة ثم إلى العالم، كما يمدد بالمعالم الأساسية لفهم العالم، و التنظيم المعقلن للماضي والحاضر⁵.

أما على المستوى الفكري فقد تمت الإشارة إلى مساهمة المادة في تكوين كفايات الحس النقدي وهي من الكفايات الإستراتيجية الأساسية التي تؤكد عليها البرامج و المناهج الحالية، في حين تمت الإشارة إلى جملة من الأهداف التي تسعى المادة لتحقيقها ومنها، ترسيخ الهوية الحضارية المغربية، و الوعي بتنوع و تفاعل و تكامل روافدها، و التشبع بروح التسامح و قبول الاختلاف، و التفتح على مكتسبات و منجزات الحضارة الإنسانية المعاصرة.

واعتمادا على هذه المنطلقات التربوية العامة يمكن القول بشكل عام بأن أسئلة الهوية والعلاقة بالآخر، حاضرة في الوثائق الرسمية، وتسمح بشكل عام في رسم تصور تربوي يمكن من ترسيخ الهوية من ناحية، وبناء علاقات ايجابية مع الآخر من ناحية أخرى. وهو تصور يختلف عن التصورات السابقة التي كانت محكومة بهاجس الوحدة عندما يتعلق الأمر بالأنا، عبر إخفاء الاختلافات، أو بهاجس المواجهة حينما يتعلق الأمر بالآخر.

2. صورة اليهود في الكتب المدرسية لمادة التاريخ

لا مشاحة من القول بتعدد مجالات الآخر ومقاربات النظر إليه، لكن ومهما اختلف تعريف هذا الآخر وطبيعته، فإن علاقته بالأنا تبقى ضرورية وحيوية، تتنازعها تيارات التواصل والحوار والتعايش حينما والصراع والرفض أحيين أخرى. وقد اخترنا الاشتغال في هذا المقال على آخر من نوع خاص، إنه آخر مزدوج، فهو مكون من مكونات الهوية المغربية التي وجدت تاريخيا بالمغرب وتعايشت مع جماعته في المدن والقرى، ونشأت بينهما علاقة تفاعل وتناقف، لكنه مع ذلك يبقى آخر مختلفا بالنظر للاختلاف الديني بين اليهودية دين الأقلية، والإسلام دين الأغلبية. فما صورة اليهود في كتب مادة التاريخ بالمرحلة الثانوية الإعدادية؟

بداية نسجل تراجعا من الناحية الكمية لموضوعات تتصل بالآخر اليهودي في كتب التاريخ بهذه المرحلة، على اعتبار أن كتب الجيل الأول تضمنت وحدات خاصة مثل وحدة «العبرانيون» والتي احتوت إشارات مهمة حول مختلف التحولات التي شهدتها هذه الجماعات على عهد الأنبياء الملوك مثل النبي داود وسليمان، وكذا الهجرات اليهودية بعد الأسر البابلي ونشيت اليهود على يد الأشوريين وملكهم «نيوخذ نصر»⁶. وهو تراجع لا يمكن الحسم في تفسيره، دون استحضار خصائص الظرفية السياسية والثقافية التي تؤثر في تأليف الكتب المدرسية وترسم أهداف السياسات التعليمية.

رغم هذا التراجع يمكن القول أن الآخر اليهودي ظل حاضرا في الكتب المدرسية الجديدة، لكنه مضمن في وحدات لا تتصل بتاريخه بشكل مباشر بقدر ما ترد هنا وهناك في سياق الحديث عن تاريخ القضية الفلسطينية أو تاريخ الأديان، أو تاريخ الدول الإسلامية. ويمكن في هذا الصدد أن نورد بعض الإشارات التي تناولته في هذه الكتب، مع محاولة تجميع تلك العناصر لتكوين تصور عام حوله.

ففي كتاب السنة الأولى من هذه المرحلة، و الذي يغطي مرحلة من مراحل التاريخ القديم والوسيط (ميلاد الحضارات القديمة خاصة حضارة بلاد الرافدين، إلى فترة الحروب الصليبية) نجد حضور لعدد مهم من المعطيات حول الديانة اليهودية التي تم تخصيص الحديث عنها في محور خاص من درس «الديانات في الحضارات القديمة بين التعدد والتوحيد»⁷.

نجد في النشاط الأول من الدرس خريطة تحدد المجال الجغرافي لظهور الديانة اليهودية، وتحصره في صحراء سيناء بمصر، وقد رمز لليهودية في مفتاح الخريطة بالشمعدان المقدس، وهو من الرموز الدينية، بينما تم الترميز للمسيحية بالصليب.⁸ وفي النشاط الثاني أدرجت اليهودية في خط زمني عام للديانات القديمة، يؤطر الفترة الممتدة من 2200 قبل الميلاد إلى 700 (ميلادية) ويحدد سنة 1200 (ق م) ك لحظة تاريخية لبعثة موسى بمصر وميلاد الديانة اليهودية.

وفي نشاط آخر يقدم الكتاب بعض خصائص الديانة اليهودية من خلال نصوص مقتطفة من « سفر الهجرة» ج 20، وهي عبارة عن عشر وصايا لموسى مضمونها:

« لن يكون لك إله غيري، لن تعبد الأصنام بعد اليوم، أطع أباك وأمك وأحسن إليهما تنعم بالعمر المديد، لا تقتلوا تخن، لا تسرق، لا تشهد زورا، لا تصم في مال الغير »

وقد أرفقت هذه الوصايا العشر بنص قرأني حول بعثة موسى، كما تم تقديم صورة للفائف التوراة، التي عرفت بأنها: « المرجع الرئيسي للديانة اليهودية، وتشكل سجلا لتاريخ القبائل العبرانية، وتتضمن أقوال اليهود، وما تلقوه من وحي، كما يحدد طقوس الديانة والتنظيمات الاجتماعية والقضائية الخاصة باليهود».⁹

يكتشف المتعلم من خلال هذه الوحدة وبشكل مركز فكرة عن اليهود من خلال ديانتهم التي تقدم له كديانة توحيدية تخالف الديانات «الوثنية»، نزلت على موسى في سيناء بمصر، وتضمنت قيم تشبه إلى حد كبير قيم دينه الإسلام. كما أن الكتاب المدرسي يقدم تصورا للأصول الإثنية لليهود، حيث ربط اليهود «بالقبائل العبرانية» التي كانت تستوطن مناطق فلسطين منذ قرون ما قبل الميلاد قبل أن تم تشتيتهم من طرف الرومان والأشوريين. إذنفاليهودي في هذه الوحدة يقدم باعتباره آخرادنيا تجمعه و الأنا المسلمة روابط عقدية توحيدية، مع ما يتضمنه ذلك من دعوة ضمنية للتعرف والحوار معه على قاعدة الاعتراف بديانته وأبنيائه ومبادئه الأخلاقية المضمنة في التوراة.

غير أنه وبعد هذا الدرس، لا نجد سوى إشارات عابرة حول اليهود واليهودية، ففي درس حمل عنوان «نشأة الدولة الإسلامية» تصادفنا إشارتان حول اليهود، تتعلق الأولى بيهود «خير» في إطار خريطة تبين غزوات الرسول، والإشارة الثانية جاءت في إطار تقديم وثيقة تاريخية (من سيرة ابن هشام) معنونة ب«دستور الدولة الإسلامية جاء فيها» لليهود دينهم، مواليهم أنفسهم إلا من ظلم وأتم، وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة».¹⁰

يبدو أن هذه الإشارات ترد بهدف تبيان تسامح الإسلام والمسلمين تجاه أتباع الديانات الأخرى، ومنها الديانة اليهودية التي وجدت قبل الإسلام بشبه الجزيرة العربية، ويثرّب بشكل خاص، والتي ضمت عددا من بطون و قبائل اليهود ومنهم بني النضير وبني قينوقاع، وغيرهم.

ومما يمكن تسجيله أنه لا توجد في الكتب المدرسية أي إشارات مهمة حول الآخر اليهودي طيلة العصور الحديثة، ولكنها تعود لتبرز بشكل قوي، في الوحدات الخاصة بالتاريخ المعاصر، وبشكل أخص في تاريخ المشرق العربي، والذي شهد بروز القضية الفلسطينية. و تربط هذه الكتب بداياتها وجذورها بحدث تأسيس الحركة الصهيونية وسعي الأخيرة إلى تأسيس كيان يجمع شتات اليهود بفلسطين. وفي هذا الإطار يسمح درس « القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي» في رصد معجم متعلق بالآخر اليهودي، يمكن تقديمه على هذا الشكل:

- تواتر كلمات من قبيل اليهود، و اليهودية العالمية، و الشعور والوعي القومي اليهودي، والشعب اليهودي، والدولة اليهودية والحركة الصهيونية، إسرائيليون وغيرها.
- تم تعريف الحركة الصهيونية باعتبارها «حركة ظهرت خلال القرن 19م، عمل زعمائها على المطالبة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين»¹¹ ومن الجدير بالذكر أن هذه الحركة قدمت في كتاب الجديد في الاجتماعيات، بهذا الشكل دون الإشارة إلى طبيعتها العنصرية كما وردت في كتب مدرسية أخرى.
- يقدم الدرس إلى جانب المفاهيم أحداثا تاريخية حاسمة تسعف في فهم جوانب تاريخية مهمة حول اليهودانية في الشرق الأوسط، وتتمثل بالأساس في الأحداث التالية: المؤتمر الصهيوني الأول ببال سنة 1897، والمؤتمر الصهيوني الحادي عشر في 1913، و وعد بلفور في 1917، وإعلان تأسيس دولة إسرائيل في 1948.

ولعل ما يمكن ملاحظته في هذا الصدد هو أن المقاربة المعتمدة في عرض الأحداث تتميز باتخاذ نوع من المسافة اتجاه الصراع، وكذا عرضها للصراع انطلاقا من مرجعية القانون الدولي الذي أقر منذ السنوات الأولى للنزاع، مبدأ التقسيم عبر القرار الأممي الصادر بتاريخ 1947.¹²

ومع ذلك يمكن إبداء بعض الملاحظات النقدية حول طريقة العرض التاريخي للنزاع، ومنها عدم تضمن الوحدة لعناصر كفايات حل النزاعات والتربية على قيم السلم العالمي، ويبدو ذلك من خلال غياب رواية الآخر حول النزاع، بما يسمح للمتعلم من تكوين معرفة تاريخية مركبة ومتقاطعة، وتتيح له فرصة معرفة رواية الأنا في علاقتها برواية الآخر المعني بالنزاع، حتى يكون الدرس فرصة لفهم الاختلافات كما أكد على ذلك أندي سيغال بصدد مقال له حول دور تدريس الاختلاف عبر درس التاريخ. وهو الشيء الذي لا تزال برامج التاريخ الحالية قاصرة على استيعابه، إذ يبدو منطق العرض الكرونولوجي للأحداث مهيمنا على مقاربتها وتناولها للحدث التاريخي سواء تعلق الأمر بتاريخ الأنا أو تاريخ الآخر.¹³

إن صورة الآخر اليهودي إذا تقدم بناء على عينة الكتب المنتقاة، باعتبارهم أصحاب ديانة سماوية توحيدية، توافق الإسلام في مبادئ الدعوة للتوحيد ونبذ ما عداه من عبادة الأوثان والآلهة

المتعددة، وهو ما يمكن ترجمته بوحدة الأصل والتصور، اعتبارا لكون اليهودية ديانة اليهود جزءا من الديانات التوحيدية الإبراهيمية، مثلها في ذلك مثل الإسلام والمسيحية. وهي دعوة ضمنية للمتعلم للتعامل الإيجابي معها ومع معتققيها. لكن هذه الصورة تتخذ طابعا مغايرا في سياق الحديث عن المشكلة الفلسطينية، على اعتبار أن اليهود في شخص الحركة الصهيونية مسؤولون عن مأساة الشعب الفلسطيني، الذي تعرض للاحتلال والتشرد جراء سياسات الهيمنة والاستيطان والقتل.

في نهاية هذا التحليل الوصفي لصورة الآخر اليهودي في برامج مادة التاريخ بهذه المرحلة، لا بد من الإشارة إلى أن هذه البرامج لا تتضمن بشكل عام أي إشارات مهمة حول تاريخ الأقليات اليهودية المغربية، ولا تمكن المتعلم من التعرف على جوانب من تاريخ مكون من مكونات هويته المتعددة، والتي تم تحديدها في الوثيقة الدستورية الأخيرة لسنة 2011، وهو ما يشكل ثغرة في هذه البرامج، وهي لا ترتبط فقط بالمكون اليهودي المغربي، بل تشمل مكونات أخرى على رأسها المكون الإفريقي والحساني والمورسكي والأمازيغي. ولعل مرد ذلك هو استمرار التعامل الحذر مع هذا التنوع والتعدد، من هنا نسجل عدم انسجام هذه البرامج مع ما تنص عليه الوثائق الرسمية من تعدد روافد الهوية المغربية، وعدم انسجامها مع المفهوم الجديد للهوية المتعددة. وهو ما يجب الانتباه إليه في أي إصلاح مرتقب لهذه الكتب المدرسية حتى تكون مترجمة بشكل فعلي وعملي لمبادئ التربية على التنوع الثقافي، وقيمة بأجرأة وظائف التاريخ في فهم الاختلاف وتقييمه والتعامل الإيجابي معه.

3. صورة اليهود واليهودية في تمثلات أساتذة التاريخ

بعد تحليلنا لصورة وحضور الآخر اليهودي في برامج التاريخ، نرى من المفيد رصد تمثالات الأساتذة حوله، اعتبارا لدورهم كوسيط أساسي بين مضمون هذه الكتب وبين المتعلمين المستهدفين بما تتضمنه من معلومات مختلفة. والقصد هو ملامسة مدى الانسجام بين ما تتضمنه هذه الكتب، مع ما تتضمنه مواقف عينة من أساتذة التاريخ حول الموضوع نفسه.

ينكون مجتمع البحث من مجموع أساتذة مادة الاجتماعيات بالمرحلة الثانوية الإعدادية، بناية زاكورة، أكاديمية سوس ماسة درعة، وقد اخترنا من مجتمع البحث عينة عشوائية تتكون من حوالي 15 أستاذا يدرسون المادة نفسها ببعض مؤسسات النيابة المذكورة.

وبهدف ملامسة بعض تمثالات هذه العينة من الأساتذة حول اليهود واليهودية سواء في الكتاب المدرسي أو في مواقفهم الشخصية من بعض القضايا ذات الصلة،¹⁴ وقد وجهنا إليهم استمارة حول الموضوع فكانت إجاباتهم على الشكل التالي:

آ- حيز اليهود واليهودية داخل الكتاب المدرسي الخاص بالتاريخ

إجابة على السؤال المتعلق بتقييم مستوى الحضور الكمي لليهود في درس التاريخ، عبرت نسبة 50% من الأساتذة بأن الحيز المخصص للحديث عن اليهود ضعيف بالمقارنة مع مجموع البرنامج، وذهبت نسبة 48% إلى اعتبارها متوسطة، وذهبت نسبة لا تتعدى 2% إلى أن حيز تلك المعارف ضعيف. هذا التقييم لمستوى حضور اليهودية واليهود في الكتاب المدرسي من طرف أساتذة مادة التاريخ، يجد مرجعيته من عنصرين رئيسيين، يرتبط أولهما بكون الكتاب المدرسي يحتوي بالفعل على أفكار ومعجم يحيل على اليهود بشكل كبير مقارنة بباقي المواد الأخرى، ويظهر ذلك من خلال درس حول الديانات القديمة بين التعدد والوحدة في برنامج السنة الأولى، ودرس القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي في برنامج السنة الثالثة كما سبق أن رأينا في الفصل الأول. أما العنصر الثاني فيرتبط بحجم المساحة الزمنية المخصصة لمادة التاريخ خاصة إذا علمنا أن نفس المدرس مكلف بتدريس مادتين أخريين هما الجغرافية والتربية على المواطنة مما يفسر في نظرهم معقولة وواقعية ذلك الحضور. حيث أن ما هو مقدم منها حسب بعض أفراد العينة « كاف لمعرفة وجهة نظر اليهود تجاه المسلمين وسلوكهم وتعاملهم وموقفهم من الديانات الأخرى ».

ب- طبيعة المعرفة المتعلقة باليهود واليهودية في الكتاب المدرسي الخاص بالتاريخ حسب عينة من أساتذة المادة

المعرفة المدرسية معرفة مبنية وفق تصورات محددة، تعكس رهانات مختلفة ومتحولة حسب الظروف والسياسات الداخلية والخارجية، وبالتالي فإن موقف المدرسين من مشروعيتها العلمية يختلف من أستاذ لآخر. في هذا السياق برز لدينا بخصوص السؤال المتعلق بمدى المشروعية العلمية للمعارف المضمنة في الكتب المدرسية حول اليهود ما يلي:

عبرت نسبة 52% من الأساتذة بأن المعارف الواردة في الكتاب المدرسي حول اليهود واليهودية تكتسي صبغة ومشروعية علمية لاستنادها إلى مصادر تاريخية ذات مصداقية كما أنها حسب بعض أفراد هذه العينة « معرفة علمية دقيقة تقدم للمتعلم رغبة في مساعدته على اتخاذ وجهة نظر وموقف واضح من اليهود ». في حين ترى نسبة 48% من أفراد العينة أن تلك المعارف لا تستند لأساس علمي واضح، فالطابع الأيديولوجي هو المتحكم فيها بالدرجة الأولى، كما أنها حسب البعض « معرفة تاريخية سطحية ومبسطة » تسعى لترسخ مفهوم الدولة الإسرائيلية باعتبارها حركة صهيونية لدى التلميذ.

ترتبط هذه المعارف حسب الأساتذة بدرجة أولى بمرجعيات تاريخية بنسبة 50%، وبمرجعيات إنسانية (حقوق الإنسان، المواثيق الدولية...) بنسبة 30% ثم دينية بنسبة 20%.

ج- المعرفة المدرسية المتعلقة باليهود واليهودية منظورا إليها من خلال قناعات الأساتذة والمنهاج المدرسي

حول سؤال علاقة المعرفة الموجودة في الكتاب المدرسي الخاص بمادة التاريخ بقناعات وأفكار بعض أساتذة المادة توصلنا إلى أن نسبة 81% يصرحون بوجود نوع من الانسجام والتوافق حيث يقول أحد أفراد العينة أن «المعارف المقدمة حول اليهود تدعو إلى التسامح واحترام الغير دون النظر إلى دينه وجنسه ولغته» بينما عبرت نسبة 19% على عدم انسجام تلك المعارف مع قناعاتهم وأفكارهم الخاصة، يقول أحد أفراد العينة أن تلك المعارف «تتناقض مع قناعاته وأفكاره».

أما بخصوص علاقة تلك المعارف بالمنهاج، قد عبرت نسبة 90% من الأساتذة على الانسجام الواضح بين منطلقات المنهاج والمعارف المقدمة حول موضوع اليهود واليهودية، فالكتاب المدرسي يتبنى حسب هذه العينة مقاربة تسامحية بشأن العلاقة مع الآخر وتترجم على شكل تعلمات بعيدة عن المواقف الانفعالية والموجهة التي كانت تغطي على مقاربة البرامج القديمة .

د- الموقف العام من اليهود واليهودية

عموما يمكن التمييز في المواقف العامة لأساتذة المادة بخصوص الآخر اليهودي بين موقفين:

- **الأول:** موقف ديني وسياسي: من خلال التركيز على لازمة التحريف الذي طالت أصول اليهودية بعد النبي موسى إلى جانب ذلك يبرز لدى هذه الفئة تركيز خاص على علاقة اليهود ب «مأساة الشعب الفلسطيني» خلال القرن العشرين . وكمثال على هذا الموقف نجد أحدهم يشير أن «اليهود عرق من الأعراق البشرية وديانة سماوية لها مبادئ وأصابتها تحريفات» ويشير أستاذ آخر معبرا عن موقف مماثل أنه «ضد اليهود لأنهم ليست لديهم ثقافة الحوار واحترام الديانات الأخرى خاصة الإسلامية على الرغم من أن هذه الأخيرة تدعو إلى احترام الآخر كما جاء في السنة النبوية وما نلاحظه الآن وما كان في التاريخ يعبر عن موقف اليهود: التعصب وعدم احترام الآخر، والقتل والتشريد، و سلوكهم في فلسطين نموذج على ذلك».
- **الثاني:** موقف حقوقي : يرتبط بالمرجعية الكونية لحقوق الإنسان وما تدعو إليه من احترام الآخر بغض النظر عن دينه أو لغته، و كمثل على هذا التوجه يمكن أن نبرز موقفا في هذا الاتجاه حيث يشير أستاذ إلى تبنيه في نظره للآخر اليهودي «المقاربة الحقوقية الكونية والشمولية لكن أفضل فيها وأستثني الحركة الصهيونية التي هي حركة عنصرية واستعمارية توسعية في علاقتها بالإمبريالية».

إن مواقف أفراد عينة البحث الخاصة بأساتذة التاريخ تعبر بشكل عام عن موقف متذبذب من مسألة العلاقة باليهودية واليهود، غير أن ما برز بشكل كبير من خلال لقاءاتنا مع أفراد هذه العينة، هو توازن مواقفها الخاصة تجاه الموضوع ووعيتها بضرورة التمييز والفصل بين اليهود كشعب واليهودية كديانة من جهة، والصهيونية كحركة سياسية ذات علاقة وثيقة بالإمبريالية الغربية في نظرهم .

خلاصات ومقترحات

حاولنا من خلال هذا المقال معالجة موضوع صورة الآخر في الكتب المدرسية المغربية الخاصة بالتاريخ بالمرحلة الثانوية الإعدادية، معتمدين أسلوبا وصفيًا تحليليًا، ورصدنا تمثلات عينة من أساتذة المادة بالمرحلة الثانوية الإعدادية اعتمادا على الاستبيان، وكان ذلك بهدف إثارة الانتباه إلى حيوية طرح هذا الموضوع الذي يعتبر راهنيا في علاقته بالإشكالات التي تطرحها مسألة العلاقة بالآخر. ونظر الصعوبة الإحاطة بموضوع الآخر في شموليته، حاولنا الاشتغال على حالة الآخر اليهودي، عل ذلك يكون مقدمة للاهتمام بعناصر أخرى تجسد الاختلاف والغيرية، وطرق تدبيرها وتصريفها الديدانكتيكي سواء في الكتب المدرسية أو الممارسة الصفية، خاصة وأن التعدد والتنوع الذي ميز المجتمع المغربي على الدوام، يعد حقلًا معرفيًا جديدًا يطرح على المشتغلين في البحث التربوي الاهتمام به تحليلًا ومناقشة، مع السعي الدائم لتطوير استراتيجيات كفيلة بتدبيره تربويًا عبر تعلمات تعزز منطق فهم الاختلاف وتقييمه وتدبيره بشكل إيجابي ومتوازن. وهو ما يمكن أن يتحقق عبر مراجعة البرامج الحالية على ضوء مبادئ التربية على التنوع الثقافي والحق في الاختلاف.

المراجع:

1. MOSCOVICI, (1984) , « Psychologie sociale », Presses Universitaires de France, Paris, p 301.
2. ABRIC, J.C. (1994), Pratiques sociales et représentations, Presses Universitaire de France, Pari, p64.

3. حول هذه النقطة انظر:

MOLINER P. (2005), « La fonction génératrice de Sens du Noyau des Représentations Sociales: un remise en cause ? » in Textes sur les Représentation Sociales, V 14, p 3.

4. الميثاق الوطني للتربية والتكوين المملكة المغربية، ص 7.
5. التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة الاجتماعيات، وزارة التربية الوطنية، المملكة المغربية، 2007، ص 12.

6. التاريخ القديم السنة الثانية من الثانوي، منشورات دار الثقافة، ودار الكتاب، الدار البيضاء (غير مؤرخ)، ص 62.
7. ينطلق هذا الدرس من مجموعة من الأهداف التعليمية والتي نذكر من بينها ما يلي:
تعرف جوانب الديانات في الحضارات القديمة.
التمييز في هذه الديانات بين التعدد والتوحيد.
اكتشاف مبادئ الديانات التوحيدية (اليهودية والمسيحية).
اكتشاف بعض مبادئ الديانات القديمة من خلال نصوص دينية.
8. في رحاب الاجتماعيات، السنة الأولى من التعليم الثانوي الإعدادي، كتاب التلميذ (ة)، محمد زين العابدين وآخرون، مكتبة السلام الجديدة، الدار العالمية للكتاب، الطبعة الأولى سنة 2003، ص 38.
9. في رحاب الاجتماعيات، السنة الأولى، نفس المرجع، ص 38.
10. في رحاب الاجتماعيات، السنة الأولى، م س، ص 46.
11. الجديد في الاجتماعيات، السنة الثالثة من التعليم الثانوي الإعدادي، كتاب التلميذ (ة)، تأليف علي الحمومية وآخرون، دار التجديد للنشر والتوزيع، طبعة 2005، ص 55.
12. تفاوت الاهتمام بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي في الكتب المدرسية، نظرا لاختلاف السياقات التاريخية والسياسية والفكرية، ففي الجيل الأول من الكتب المدرسية للثانوي الإعدادي تم تناول القضية في إطار درس بعنوان «الشرق العربي المعاصر»، في مرحلة لاحقة تم تخصيص درس خاص بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، وهو نفس العنوان الذي احتفظ به في كتب الجيل الثالث.
- (انظر «معالم تطور الهوية المغربية من خلال كتب التاريخ المدرسية منذ 1956-المرحلة الإعدادية نموذجاً- علي موريف، بحث لنيل دبلوم الماستر في علوم التربية، جامعة محمد الخامس-السويس، الرباط، 2008، ص 108.)
13. حول دور تدريس التاريخ في فهم الاختلافات يمكن الرجوع إلى:
- André Ségal, (1984), « Enseigner la différence par l'histoire », Numéro spécial des Cahiers de Clio. Sciences de l'Homme et de son environnement, pp. 39-45, réédité dans Traces, 28, 1 (janvier 1990), p. 16-19.
14. تنتمي عينة البحث بشكل كلي عدد من مؤسسات نيابة زاكورة، وقد اخترنا أساتذة المؤسسات التالية، مؤسسة موسى بن نصير بمركز النقوب، ومؤسسة ايت اوزين الإعدادية بايت ولال، مؤسسة الخوارزمي وإدريس الأول بمركز أكدز.